عندما هجرنا تدبر القرآن تمذهبنا

كتبه غريب الديار بتاريخ الجمعة ١٣ شعبان ١٤٤٢

نبدأ بإذن اللّٰه أول مقالات هذه السلسلة التي تعرض بعض النتائج الكارثية لعدم تدبر القرآن التي وقعت فيها الأمة قديما ومستعينا بالله أقول

إن هجر تدبر القرآن يجعل المرء يدين بدين ميت لا روح فيه, مجرد طقوس يقوم بها, وذلك لكون هذا الوحي قرآنا وسنة ليس فقط لتعلم دين اللّٰه, وإنما هو أيضا روح هذا الدين, متى تُعلمَ الدين من غيره صار دينا ميتا, وقد نص اللّٰه على كون هذا الوحي روح أمر اللّٰه في قوله:

﴿ يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرّوحِ مِن أَمرِهِ عَلى مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ أَن أَنذِروا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلّا أَنا فَاتَّقونِ ﴾[النحل: ٢]

وقوله:

﴿ رَفيعُ الدَّرَجاتِ ذُو العَرشِ يُلقِي الرّوحَ مِن أَمرِهِ عَلى مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ لِيُنذِرَ يَومَ التَّلاقِ ﴾[غافر: ١٥]

لذلك عدم تدبر الوحي قرآنا وسنة يجعل المرء لا يدرك قيمة ما يفعل, والدين بالنسبة له جزء من التراث والهوية, لأنه لا يجد من الترغيب والترهيب ما يكفي ليدرك قيمة هذه التكاليف الربانية , مما يجعله يفرط فيها مع مرور الزمن .

هذا الأمر في تصوري بدأ مبكرا في هذه الأمة, فلقد كانت الفتوحات في العهد الراشدي كثيرة جدا, ودخل في دين اللّٰه كثير من العجم خصوصا من أهل العراق وبلاد فارس والشام ومصر وغيرها من الأقطار.

هذا التوسع الهائل والسريع لم يواكبه تعليم كاف يجعل المسلمين العجم الجدد متمكنين من لسان العرب وقادرين على فهم نصوص القرآن والسنة وتدبرها, مع العلم أنهم كانوا مسلمون صادقون فهم من حمل راية الجهاد لفتح البلدان الأخرى.

الجيل الثالث والرابع من مسلمي العجم لم يكونوا قادرين على فهم النصوص كما يجب, مما جعل نظرتهم للدين نظرة موروث توارثوه أكثر من كونه قناعة, ومن ثم قلَّ

التدقيق في مصدر الفتوى، وهذا ما خلق بيئة خصبة لظهور ما عرف بالمذاهب فيما بعد .

فالمذهب يبدأ بسؤال زيد من الناس عالما عن حكم شرعي، فيفتيه هذا العالم بدون دليل، فيقبل زيد هذه الفتوى ويعمل بها .

بعد وفاة العالم يقوم طلبته بجمع فتاويه في كتاب واحد، ثم يبدؤون في البحث عن الأدلة التي بنا عليها العالم فتاويه، يفرز هذا البحث مصادر التشريع في المذهب أو أصول المذهب ، وهكذا يتبلور المذهب بناء على تلكم المصادر والتي يعتمدها مجتهدوا المذهب فيما بعد.

أي أن المذاهب والتمذهب نتيجة طبيعية لعدم تدبر القرآن، والتي سوف تؤدي بدورها إلى مزيد من هجر تدبر القرآن، وذلك أنه بعد ظهور المذاهب انقسم الناس إلى نوعين :

المقلدين الذين لا يحق لهم النظر في نصوص الوحي لمعرفة أحكامهم

والمجتهدين الذين عليهم أن يجتهدوا وفق قواعد الاجتهاد التي وضعها أسلافهم، والتي تنبني أن نصوص الوحي قرآنا والسنة غير قادرة على تفصيل حكم كل الحوادث، لذلك استحدثت هذه القواعد، والتي تحدثنا عنها بإسهاب عند الحديث عن تعريف القياس.

بالمحصلة عندنا عامي محرم عليه النظر في النصوص حتى لا يضل، ومجتهد أشرب في قلبه الطعن في استيعاب النصوص للنوازل تفصيلا وحكما، فمن بقي لكي يتدبر القرآن ؟!

للأسف لا أحد، وهذا ما يفسر الظلام الدامس الذي تتخبط فيه الأمة منذ ظهور هذه المذاهب إلى اليوم .

لذلك هذه المذاهب هي أسوأ ما أصيبت به هذه الأمة، لأنها فصلت الأمة مع وحي ربها، وأغلقت الباب دونه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.